الملامح المشتركة بين روايتي (الجنقو مسامير الأرض) و(مئة عام من العزلة) [1]

بقلم: د. عمر بادي [2]

هذه مجموعة ملاحظات استنبطتها من قراءاتي المتأنية للروايتين آنفتي الذكر، وفي الحقيقة فقد قرأت قبل سبعة أعوام رواية (مئة عام من العزلة) للروائي الكولومبي الأصل غابرييل غارسيا ماركيز الذي عاش في فرنسا مدة طويلة ثم انتقل إلى المكسيك وعاش فيها إلى أن أدركته المنية قبل سنوات قلائل. لكنني حين قرأت قبل أسابيع مضت رواية (الجنقو مسامير الأرض) للروائي السوداني عبد العزيز بركة ساكن الذي يعيش حالياً في النمسا، تبيَّنت لي مجموعة من الملامح المشتركة بين الروايتين فتناولت رواية (مئة عام من العزلة) التي من ضمن كتبي التي معي ومررت عليها حتى أتيقن وأستزيد من أوجه الشبه في الملامح المشتركة بين الروايتين.

عندما لامست يداي رواية (الجنقو مسامير الأرض) وبدأت عيناي في مسح أحرفها، أُصبت بصعقة في عصب التذكر ووجدت نفسي أنتهي من

(1) نشر المقال في موقع الراكوبة الإلكتروني بتاريخ 15 ديسمبر 2015.
(2) كاتب سوداني.

قراءتها في وقتٍ وجيز. لقد وجدت نفسي أستعيد ماضي ذكرياتي في مسرح أحداث الرواية، فقد عملت لمدة ثلاث سنوات في كهرباء خزان خشم القربة وأنا في مقتبل حياتي العملية في الهيئة القومية للكهرباء، وكان عملي في قسم التشغيل كمهندس وردية مما أتاح لي أن أتنقل في أيام الراحات ما بين حلفا الجديدة والقضارف وكسلا، وأجوب الفيافي حتى بلدة ود الحليو والمشاريع الزراعية المطرية؛ فقد كان لي أصدقاء في كل بلدة، وقد ضَمَّنتُ بعض ذكريات تلك الفترة في كتاب لي طبعته في عام 2003م وهو مجموعة مقالات عبارة عن ذكريات ومواقف طريفة كنت قد كتبتها في صحيفة الخرطوم. لقد قرأت أيضاً للروائي عبد العزيز بركة ساكن روايته (مسيح دارفور) ونحا أيضاً فيها نحو السرد التاريخي التوثيقي ولكنه استبدل الجنقو بالجنجويد! لقد كتب الروائي ساكن روايته (الجنقو مسامير الأرض) في خشم القربة، وأتمَّها في عام 2009م، ووصفه لخشم القربة أعادني لاسترجاعها، كما أعادتني حكاياته عن مملكة الجن في خشم القربة إلى أحداث مرَّت بي في ليالي حلة خشم القربة لم أكن أتبين كُنهها!

رواية (مئة عام من العزلة) للروائي ماركيز قامت بنشرها دار المدى للثقافة والنشر – دمشق 2005م بترجمة صالح علماني، والكتاب من القطع المتوسط ويحتوي على 501 صفحة. أما رواية (الجنقو مسامير الأرض) للروائي ساكن فقد قامت بنشرها دار أوراق للنشر والتوزيع – القاهرة الطبعة الرابعة 2012م، والكتاب من القطع المتوسط ويحتوي على 377 صفحة. سوف أتناول الملامح المشتركة بين الروايتين في شكل نقاط كي

أروي من خلالها أمثلة لأوجه الشبه من كل رواية:

-1 مسرح الأحداث: تنتهج الروايتان طريقة سردٍ ذي طبيعة تاريخية واقعية عن التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في حقبةٍ من العصر الحديث، يمكن معرفتها بنوعية الاختراعات والتقنيات المتداولة فيها، مع شيء من حرية التصرف في التفاصيل الجانبية، وبجوانب إنسانية كوسموبوليتانية تتعدى العرق الواحد واللغة الواحدة والمعتقد الواحد. هذا يذكرني بروايات جرجي زيدان عن التاريخ الإسلامي الذي حبكها في أسلوبٍ مشوقٍ فزاد فيها تفاصيل جمالية لم تؤثر على مجرى التاريخ. كذلك يذكرني بروايات الروائية الجزائرية أحلام مستغانمي التي أبرزت تاريخ الجزائر الحديث فيها ولكن بطنتها ببطانة جمالية مشبعة بالحب وبالعلاقات الإنسانية وبقضايا التشدد والصراعات.

لم يبين الروائي ماركيز متى تأسست قرية ماكوندو ولكنني من خلال تطورها التاريخي أحسّ أنها تأسست في منتصف القرن التاسع عشر، مثلها في ذلك كمثل (الحلة) في رواية عبد العزيز بركة ساكن الذي أرجع إنشاءها إلى منتصف القرن التاسع عشر، وبذلك تطورت وسائل النقل فيها من السفر بالأقدام إلى ركوب الدواب ثم ركوب السيارات والقطارات، وقد تطرق الروائيان لخاصية المجتمعات المنغلقة في الثرثرة والأقاويل والإشاعات والخرافات، أيضاً كتأكيد للواقعية ولحقيقة الأحداث ذكر ماركيز أن أورليانو الحفيد الأخير التقى بأربعة من شباب ماكوندو في مكتبة العالم الكتالوني وتصادق معهم وكان بينهم غابرييل

حفيد الكولونيل خرينيلدو ماركيز زميل وصديق العقيد أورليانو بيوندیا، وقد فاز غابرييل في مسابقة لمجلة فرنسية كانت جائزتها رحلة إلى باريس، وسافر إليها وعمل في بيع الكتب والمجلات القديمة، إنه نفسه غابرييل غارسيا ماركيز الذي كتب الرواية من الأحداث التي رواها له صديقه أورليانو الأخير عن عائلة بيوندیا التي عرف بعضها بحكم أنه منهم، وعرف الباقي بعد فكه لرموز رقائق الغجري ميلكياديس الذي تنبأ بها!.

أيضاً كتأكيد للواقعية ولحقيقة الأحداث ذكر الروائي ساكن في صفحة الإهداء لروايته أنه يهديها لأمه مريم بت أبو جبرين، أما في سياق الرواية فقد ذكر أن اسم أمه زينب بينما اسم أم صديقته مريم، ولم يأت في الرواية قط على اسمه أو اسم صديقه، فقط أشار بأنهما صديقان منذ الصغر في القضارف وكانا معاً في المراحل الدراسية كلها حتى الجامعة، وبعد أن دخلا في الحياة العملية أُحيلا سوياً للصالح العام فتجوَّلا كثيراً في أنحاء السودان في تسكع وتلكع جرياً وراء منفعة المشاهدة. ينهي الروائي ساكن روايته بعد تكوين جبهة الشرق وقبيل اتفاق المصالحة مع الحكومة، وبذلك يكون توقيت الرواية في منتصف التسعينات من القرن الماضي. في نهاية الرواية ومن معسكر اللاجئين في الحُمرة في إثيوبيا تسجل راوي الرواية في برنامج الأمم المتحدة لإعادة التوطين وسافر مع أسرته إلى فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد 15 عاماً شرع في كتابة الرواية، ولكنني أحس أنه الراوي وأن كاتب الرواية هو صديقه الذي أمه مريم وليس هو، فصديقه قد دخل في اتفاقية الشرق وقد كتب الرواية في عام 2009م وهو

في خشم القربة!.

2. مسرح الأحداث: مسرح أحداث الروايتين فيه تشابه كبير؛ ففي الروايتين تجري الأحداث في قريتين تقعان على ضفة نهر في منطقة معزولة ومحفوفة بالمستنقعات والخيران. يقول ماركيز إن ماكوندو هي قرية صغيرة من 20 بيتاً من الطين والقصب مشيدة على ضفة نهر، أنشأها خوسيه أركاديو بوينديا وحلم باسمها، وهي تقع إلى الداخل من ساحل البحر الكاريبي في كولمبيا. أما الروائي ساكن فإنه لم يسمِّ قرية أحداثه باسمها بل أطلق عليها اسم «الحلة»، ولكنه عرّفها خلال الرواية بما يدل على موقعها. يقول إن الحلة تقع على ضفة نهر وأن بيوتها من الطين والقش وأن الحمران يحيطون بالمنطقة وعلى شرق الحلة يوجد طريق حمدائيت، وأنه في مرة حدث شجار بين أحد عمال محطة الوقود الجديدة وأفراد من معسكر الشجراب كان يلعب معهم القمار، وأصيب إصابة بالغة وأخذوه لإسعافه في مستشفى خشم القربة، ولكنه مات في الطريق في مستشفى الشجراب. ويقول إنه مع تطور المنطقة صارت هنالك بصات تنقل الركاب بين الشوك وعبودة والحلة، وأنهم أثناء الهروب إلى الحُمرة عبروا النهر سباحة ثم عبروا غابة زهانة. هذا الوصف يجعلني متيقناً أن موقع الحلة هو موقع ود الحليو التي تقع على الضفة الغربية من نهر ستيت!. بالرغم من أن الروائي ساكن أتى على ذكر الكثير من القرى في أعالي نهري عطبرة وستيت وفي الفشقة الكبرى والصغرى، مثل حمدائيت والجيرة والحفيرة وزهانة والصوفي وعبودة حتى باسوندة، ولكنه لم يأتِ قط على ذكر ود

الحليو رغم أهميتها وموقعها القريب من سدي أعالي عطبرة وستيت!.

3. النهضة التنموية للقريتين: لقد تطورت ماكوندو الروائي ماركيز مع مرور الزمن إلى بلدة عليها محافظ إداري وبها كنيسة ومدرسة ونقطة للشرطة وحامية للجيش، وامتدت إليها خطوط السكة الحديدية ودخلها القطار ودخلتها الكهرباء والسينما وشركة الاتصالات، وتكونت بها شركة الموز التي أقامت مزارع عدة للموز، ووفد إليها خليط من البشر. أما حلة الروائي ساكن فقد شملتها نهضة تنموية مع تمدد مشاريع الذرة والسمسم فصارت بها مدارس ونقطة للشرطة وحامية للجيش ومسجد جامع وكنيسة ومركز صحي ولجنة شعبية وطلمبة للوقود ومحلات تجارية وشركة للاتصالات وبنك وإدارة محلية ومزارع دواجن وألبان فريزيان ومنظمة هلال أحمر، وصارت بلدة ووفد إليها خليط من البشر.

4. التعدد السكاني واللغوي: ماكوندو كان بها شارع للأتراك والعرب (الأسبان) وكان يزورها الغجر في ترحالهم ويمكثون فترات بها يعرضون ألعابهم وبعض المخترعات العلمية كنوع من السحر، وكانت هنالك مكتبة الكتالوني وحي الزنوج والخلاسيين وبيوت العاهرات الفرنسيات ثم بيوت الهنود الأهالي، وكل هؤلاء لهم لغاتهم الخاصة وبعضهم يتكلم القشتالية بجانب الإسبانية وحتى اللغة السنسكريتية كان لها حضور، وفيهم المتدينون الذين يواظبون على الذهاب كل يوم أحد إلى الكنيسة وفيهم من لا يعير ذلك اعتباراً، بجانب حوانيت اللهو والطرب وتعاطي الخمور وحلقات مصارعة الديوك. أما في حلة الروائي ساكن فقد كان

يسكنها خليط من البشر فيهم من أتى من دارفور ومن غرب إفريقيا وفيهم من أتى من جنوب السودان ومن جنوب النيل الأزرق ومن شرق السودان ومن وسط وشمال السودان، وفيهم من عبر الحدود من إريتريا وإثيوبيا، وكانت لهم لغات عدة وكلهم يتحدثون اللغة العربية العامية، بجانب حديثهم بأكثر من لغة من لغات الوافدين، ولذلك صاروا يغنون أغنية (وصتني وصيتا) المحببة لديهم بكل اللغات! فيهم المسلمون وفيهم المسيحيون وفيهم الكجوريون. الجنقو، وهم العمال الزراعيون، في حقيقتهم هم خليط من كل هؤلاء البشر وهم لا يعترفون بالحدود الدولية بين السودان وإثيوبيا وإريتريا فيعبرون جيئةً وذهاباً بين حمدائيت السودانية والحمرة الإثيوبية وأم حجر الإريترية!

5. حضور المعتقدات والمبالغات والحكمة: حضور كثيف في كلتا الروايتين ومن أمثلته: من رواية ماركيز – كان لأرسولا زوجة خوسيه أركاديو بيوندیا إبن عم له ذيل خنزير، ولذلك لم ترض أن تعاشر زوجها خوفاً من أن تلد طفلاً له ذيل، وقد فسر الناس هذا الأمر كعدم قدرة من زوجها وقد عيّره صديقه بذلك بعد أن هزمه بيوندیا في مصارعة الديوك فقام بيوندیا بقتله، ولكن صديقه الميت صار يظهر له بالليل كي يضمِّد له جرحه، ولذلك هجر بيوندیا قريته وعبر الجبال وبنى قريته ماكوندو.. عندما هاج خوسيه بيوندیا تطلَّب أن يقبضه عشرة رجال، وأن يقيّده أربعة عشر رجلاً وأن يجره عشرون رجلاً لربطه على شجرة الكستناء!. الفتاة الغجرية كانت تضاجع سبعين رجلاً يومياً حتى يصير شرشف

مرقدها سميكاً وثقيلاً، وبعد لويه وعصره يعود خفيفاً.. خوسيه أركاديو لضخامته كانت تُذبل فسواته الأزهار.. عندما اغتيل خوسيه أركاديو بطلق ناري جرى الدم من جرحه في الطرقات والممرات في شكل شريط من بيته حتى بيت والده، ومرَّ خلال البيت حتى وصل إلى المطبخ حيث تجلس والدته.. ارتفاع ريميدوس الجميلة مع الملاءات إلى السماء.. حضور الموت في هيئة امرأة وإخطارها لأمارانتا أنها سوف تموت عندما تتم حياكة كفنها وعندما أوشكت على الانتهاء منه أتاها الناس حاملين رسائلهم لموتاهم.. استمر هطول المطر أربع سنوات وأحد عشر شهراً ويومين، ثم توقف ولم يهطل لمدة عشر سنوات.. أبانت رقائق ميلكياديس التي كتبها شعراً باللغة السنسكريتية قبل زمان بعيد كل ما دار ويدور في عائلة بيوندیا في مئة عام حتى آخر حفيدٍ لهم، والذي أخذه النمل بعد وفاته. من رواية ساكن – قال الجنقو في شأن الحاصدات الصينية التي تعمل كل شيء وقد أضحوا بلا عمل: (الناس ديل ما لقوا آلة تحمّل النسوان عشان نشوف لينا شغلة تانية في الدنيا دي؟).. رائحة صناح الجنقو ترمي الصقر من السماء.. من صدق النسوان كذّب الرسل.. الموضوع بسيط ما يحتاج لقومة نفس.. الواحدة تخلي أطفالها يرضعوا هنا وهناك وهي لافة من بيت لبيت ويبقوا ينقلبوا لغراب أو مرفعين أو برطابرطا والبلد ملانة بالجن..

6. الجنس: الجنس له حضور في الروايتين، فقد أتى ماركيز في روايته على وصف مضاجعات كثيرة تجذب الانتباه، منها قوله أن خوسيه أركاديو الضخم كان يحدث عند بلوغه الذروة هياجاً كأنه هزة أرضيه، بينما تفرقع

مفاصل خليلته وتتخلع! أما في رواية ساكن فقد أتى على وصف الجنس في مواضع كثيرة سواء مع بائعات الهوى أو بائعات المريسة أو الشاذين جنسياً، ومثال لذلك: أمسك ود أمونه بشيء الطباخ، كان مظلماً كبيراً وأملساً، أدخل ما يكفي في فمه وبين أضراسه الحادة ونَفَّذ وصية أمه بحذافيرها، مما جعل كل من في السجن والذين يجاورونه والذين تصادف مرورهم في تلك الليلة بتلك الأنحاء يقفزون رعباً في الهواء من جراء صرخة الطباخ العنيفة البائسة التي لم يسمع أحد في حياته مثلها، صرخة أطارت العصافير الصغيرة النائمة في أشجار النيم وجعلت السمبريات العجوزات الساكنات بالسنطة عند بركة المياه تضرب بأجنحتها في ذعر..
لقد ذكر الروائي ساكن في غلاف الرواية الخلفي في تبريره لاتهامه بأن روايته تحتوي على مشاهد جنسية خادشة للحياء العام (يظن البعض أن في كتاباتي ما يسيء لمشروعاتهم الآيديولوجية ويخترق خطاباتهم المستقرة، بالطبع لا أقصد ذلك، فكل ما أفعله هو أنني أنحاز لمشروعي الإنساني، إنني أكتب عن طبقتي، أحلامها، آلامها، طموحاتها المذبوحة وسكينتها أيضاً التي تَذبَح هي بها الآخر).

7. الثورة والدمار: كما هو الحال في دول أمريكا اللاتينية التي قامت فيها ثورات يسارية ضد الحكام اليمينيين، كان الحال كذلك في كولومبيا إبان أحداث رواية ماركيز؛ فقام الليبراليون بثورة ضد المحافظين، وقامت الثورة في ماكوندو عندما شاهد أورليانو بيونديا تزوير صناديق الانتخابات التي استبدلت فيها ليلاً بطاقات المصوتين للحزب الليبرالي

ببطاقات لحزب المحافظين، وقد حدثت في الثورة مآسٍ كثيرة، وفي ماكوندو أضرب عمال شركة الموز لتحسين أوضاعهم وكان ذلك قبل قطاف الموز، فأحضر صاحب العمل الجنود للعمل بدلاً عن العمال، وعند ذاك قام العمال بإحراق مزارع الموز وتحطيم قضبان السكة الحديدية، فدعتهم السلطة الحكومية لسماع مطالبهم وعندما أتوا أُبيدوا بأسلحة الجيش الرشاشة، وقد انتهت ماكوندو بإعصار كاريبي ضربها لعدة أيام وأزالها عن الوجود.

أما في حلة الروائي ساكن فقد أضرب الجنقو العمال الموسميون قبل حصاد السمسم وطالبوا بزيادة أجورهم، ووضعوا أصحاب المشاريع أمام الأمر الواقع فرضخوا وزادوا أجورهم، وفي السنة التالية موّل البنك شراء حاصدات آلية كبيرة كانت سبباً في بقاء الجنقو بلا عمل فبدأوا في الهجرة وأعقبتهم هجرة بائعات الهوى وبائعات الخمور البلدية وامتلأت الحلة بالجيش والأمن والشرطة والاحتياطي المركزي والشرطة الشعبية والدفاع الشعبي، ونتيجة لظلم الجنقو واستيلاء البنك على أراضي مرعى العرب الرحَّل ورفضه منح قروض للجنة الجنقو، تمردت مجموعة من الجنقو وهاجموا نقاط الشرطة وحملوا أسلحتهم وصاروا يقطعون الطرق، ثم انضموا للحركات المسلحة في الشرق، وقبل الحصاد أشعلوا الحرائق في كل المشاريع التي كان يملك معظمها البنك واتجهت الحرائق نحو الحلة في نيران كجهنم جعلت السكان يهربون لينجوا بأنفسهم.